ندرة البطولة

للأستاذ عباس محمود العقاد

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروى ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ، ويسأل معهم: «هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء؟ وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة! وهل تجد فى الغناء أمثال اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى؟» وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا: «يظهر لى مع الأسف أن الظاهرة صحيحة، وأن الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ولا ينتج كثيراً من الأبطال، وأن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد، لا طابع النابغة والبطل»

ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله: «ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة»

والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة، وليس لهأوان يفوت بفواته. فاذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله فى الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدى الرأى فيه

ورأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال. وأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس

إن الوجه فى المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا، وأن نحصر العناصر التى تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال

وهذا الذى ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان

فمن أمثلة ذلك سؤالهم: «هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء؟»

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضى كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو العصر الذى نعيش فيه وينسون أن الزمن الذى نشأ فيه بشار والمعرى يمتد من أواسط القرن الثانى للهجرة إلى أواسط القرن الخامس، أى نحو ثلاثمائة سنة!

وينسون أن المكان الذى نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام، ومن الحضر إلى البادية

وينسون أن العصر الحاضر الذى نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذى يبدأ بفتوة الشاعر وينتهى بوفاته

وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين، فانهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلكم العصور

***

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم: ماهى المزية التى كان بها النابغ القديم «نابغ» من قرينه الحديث؟

فلا يسألون مثلا: ماهو كتاب الجاحظ الذى يستعجزون أبناء عصرنا عن الاتيان بنظيره؟ فان لم يكن كتاب فما هو الموضوع؟ وان لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة!

ولو كلفوا أنفسهم سؤالا كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا ان الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون الى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلى وابراهيم بن المهدى ومن جرى مجراهما من المطربين فى العصور الأولى. فاذا سمعوا من هذا أو ذاك؟ ومن أين لهم أن الموصلى يبلغ شأو سلامة حجازى أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلا عن السبق الذى لا يجارى والبون الذى لا يدرك؟

أما أنا فأغلب الظن عندى أن الأمر معكوس، وان ألحان الموصلى لا تعدو أن تكون مزيجا من تنغيم البدو وصبغة

الحضارة المستعارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتى على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق ، وإن لم يكن معروفا بحروف النوطة وأصوات السماع

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة فى العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها فى العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا الى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدونى أو جنكيز خان قبل أن يرجحوهم فى فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ولو انهم رجعوا الى تلك الوقائع لما اكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الاكبار

ودع أنهم ينسون ان كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وان الظفر وحده ليس بشىء ان لم ننظر معه الى عوامله ودواعيه وتتبين انها صالحة للتكرار فى كل وقعة وكل حين

ودع انهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وانها تندر فى الزمن الحديث وتكثر فى الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون فى نسيانه بعض اعذار لمن ينسونه ، ولكن كيف تراهم يحارون الأقدمين فى مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهى قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أربابا وأنصاف أرباب وقديسين وأشباه قديسين فى رأى الأقدمين ؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم فى عصرنا قبل أن نسقط فى الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب ؟ ان هذا لخليق أن يضيف الى فضل المتأخرين لا أن يغض منه ويحيف عليه ، لانهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون فى الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب !

* * *

ليس فى تاريخ بنى الانسان منذ بدايته الى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والامم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذى نحن فيه

ليس فى تاريخ بنى الانسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا فى الحرب العظمى

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والاكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من أبناء الشعب ، كمصطفى كمال ورضا بهلوى وستالين وموسليني وهتلر وكابللرو وكارديناس . فماذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين فى الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى الى البطولة فى صنيعهم من هؤلاء ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر فى غرام ملك الانجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون . فماذا عندنا من الادلة على أن غرام هيلانة فى طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى الى البطولة من هذا الغرام ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات فى مصر والهند والصين . فماذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذى شهدناه ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر أنجب فى كل أمة نموذجا يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون يات سن وشيان كاى شيكر وفيصلا وابن سعود

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر فيه ما فى عصرنا من الحقائق التى تشبه الخيال ، والعبر التى تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التى تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الانسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية . فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأى حام فى ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث فى عالم النظريات

وليس فى تاريخ بنى الانسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التى يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الاقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان

فان كنا لا نسمى ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة ،

وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم في الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له ندا بين الشعراء المعاصرين . ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذى نبغوا فيه ، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا فى زمانهم عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين فى العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة ؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه ، ويقدره خيراً مما قدروه ، ويمثل رواياته أكثر وأجل وأبرع وأكفل بالإقبال والاعجاب مما كانوا يمثلونها فى حياته

أذكر أنى رأيت منذ سنوات فى إحدى الصحف الانجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين فى أزياء العصر الحديث ، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال : هل تعرفهم ؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن . لأن الصور التى رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ماحولهم من هالات الفوارق والمسافات التى يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء .

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس فى أزياء اليوم ، وعظماء اليوم فى أزياء الأمس ، لنعرف مقدار مانضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار مانسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فان تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عيانا فلنرسمه بالظن والتقدير . ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها ، ونصلح جوانب الغلو والبخس فى كفاتها ، ونغنم تصحيح الميزان فى الحكم على الرجال والأزمان ، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب . إذ لاضرر ولا قصور فى اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس . تلك هى الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها

أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للانصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

عباس محمود العقاد

الزمن

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

حدث مرة أنى سافرت فجأة إلى أوربا من غير أن يعرف أحد من أهلى وأصحابى — عزمت على ذلك وأمضيت العزم فكانت هذه الرحلة التى لم تكن لى فى حساب قبل يومين اثنين. وأسباب ذلك كثيرة يطول شرحها . وركبنا الباخرة فما كان يمكن أن أذهب إلى أوربا سابحا ، ومضى يوم وثان وإذا بفتاة ممن عرفناهن على ظهر السفينة مقبلة على تقول :

« هل ضبطت الساعة ؟ »

ونظرت إلى ساعتها الصغيرة على معصمها ثم رفعتها إلى أذنها فقلت : « دعى هذا لى فإنى حاد السمع مرهفه . . هاتى يدك واسمعينى »

قالت : « يظهر أنك لا تسمع إلا ما تريد . . لقد سألتك الآن هل أصلحت ساعتك ؟ »

فقلت وأنا أتعجب : « أصلحتها ؟ . . ومن الذى قال إن ساعتى خربت ؟ . إنى أؤكد لك أنها من أحسن الساعات . . كانت لرجل ممن يكثر المال فى أيديهم يوما فيذهبون يشترون كل ما يخطر لهم على البال ، ويصبحون فى اليوم الثانى وقد صفرت أكفهم فيرهنون ما اشتروا أمس أو يبيعونه . . صاحب هذه الساعة شاء أن يرهنها ، ثم لم يؤد ما اقترض عليها ، فاضطر الصائغ اليهودى أن يبيعها . . ولا أحتاج أن أقول إنك ترين الرجل الفاضل الذى اشتراها منه »

فألقت إلى ابتسامة عذبة أدارت رأسى دورة جديدة — وأقول الحق إنها هى التى كانت سبب سفرى إلى أوربا فجأة — وقالت : « لا شك أنها ساعة معرقة فى الفخار . . ولكنها تحتاج الآن إلى إصلاح »

فقلت ببساطة : « أبدا . . »

فقالت : « أسرع . . رد العقربين »

فدهشت وقلت : « أردهما ؟ . . لماذا ؟ . . »